أثر الشئون الاجتماعية فى خصائص اللغة وتطورها بوصفها أهم وسيلة للإعلام (*)

للدكتور على عبد الواحد وافى

تتأثر اللغة فى خصائصها وتطورها بعوامل كثيرة ، يرجع أهمها إلى الشئون الاجتماعية ، وهى التى تتمثل فى حضارة الأمه ، ونظمها ، وعاداتها وتقاليدها ، وعقائدها ، ومظاهر نشاطها العملى والعقلى ، وثقافتها العامة ، واتجاهاتها الفكرية ، ومناحى وجدانها ونزوعها ... وهلم جرا . . . . — وسنقصر بحثنا على هذا النوع من العوامل .

١ — فكلما اتسعت حضارة الأمة ، وكثرت حاجاتها ومرافق حياتها ، ورقى تفكيرها ، وتهذبت اتجاهاتها النفسية ، نهضت لغتها ، وسمت أساليبها ، وتعددت فيها فنون القول ، ودقت معانى مفرداتها القديمة ، ودخلت فيها مفردات أخرى عن طريق الوضع والاشتقاق والاقتباس للتعبير عن المسميات والأفكار الجديدة . . . وهلم جرا . واللغة العربية أصدق شاهد على مانقول . فقد كان لانتقال العرب من همجية الجاهلية إلى حضارة الإسلام ، ومن النطاق العربى الضيق الذى امتازت به حضارتهم فى عصر بنى أمية إلى الأفق العالمى الواسع الذى تحولوا إليه فى عصر بنى العباس ، كان لهذين الانتقالين أجلُّ أثر فى نهضة لغتهم ورقى أساليبها واتساعها لمختلف فنون الأدب وشتى مسائل العلوم .

٢ — وانتقال الأمة من البداوة إلى الحضارة يهذب لغتها ، ويسمو بأساليبها ويوسع نطاقها ، ويزيل ماعسى أن يكون بها من خشونة ، ويكسبها مرونة فى

(*) ألقى هذا البحث على مجلس المجمع يوم الأربعاء ٢٧ / ٢ / ١٩٨٨ م .

التعبير والدلالة . وإن موازنة بين حالة اللغة العربية فى عهد بداوة العرب قبل الإسلام وحالتها فى عهد حضارتهم الإسلامية أو بين ماكانت عليه عند أهل البادية فى عصر ما وما كانت عليه فى العصر نفسه فى الحضر لأصدق دليل على ما نقول وإن البدوى الذى لم يلهمه شيطانه فى مدحه للأمير أحسن من قوله :

أنت كالكلب فى حفاظك للعه
د وكالتيس فى قراع الخطوب

ثم أخذ يشبه مظاهر مجد الأمير بنظائرها عند الحيوان المستأنس وغيره هذا البدوى نفسه قد استطاعت قريحته ، بعد أن هذبتها حضارة بغداد ، أن نجود بمثل قولة :

عيون المهابين الرصافة والجسر
جلبن الهوى من حيث أدرى ولا أدرى

٣ – ومظاهر النشاط الاقتصادى تطبع اللغة كذلك بطابع خاص فى مفرداتها ومعانيها وأساليبها وتراكيبها . ومن ثم اختلفت مظاهر اللغة فى الأمم والمناطق تبعا لاختلافها فى نوع الإنتاج ، ونظم الاقتصاد ، وشئون الحياة المادية ، والمهنة السائدة (الزراعة ، الصناعة ، التجاره ، الصيد ، رعى الانعام . . . الخ) . وقد تؤثر هذه المظاهر فى أصوات اللغة نفسها . فقد يؤدى نوع العمل الذى يزاوله سكان منطقة ما إلى تشكيل أعضاء نطقهم فى صورة خاصة تتأثر بها مخارج الحروف ونبرات الألفاظ ومناهج التطور الصوتى .

٤ – واللغة مرآة ينعكس فيها كذلك ما يسير عليه الناطقون بها فى شئونهم الإجتماعية العامة . فعقائد الأمة وتقاليدها ، وما تخضع له من مبادئ فى نواحى السياسة والتشريع والقضاء والأخلاق والتربية وحياة الأسرة ، وميلها إلى الحرب أو جنوحها إلى السلم وما تعتنقه من نظم بصدد الموسيقى والنحت والرسم والتصوير والعمارة ، وسائر أنواع الفنون الجميلة . . . كل ذلك وما إليه يصبغ اللغة بصبغة خاصة فى جميع مظاهرها : فى الأصوات والمفردات والدلالة والقواعد والأساليب وهلم جرا . وإليك مثلا درجة القرابة التى تربط الفرد بكل من أسرة أبيه وأسرة أمه ، فإن الأمم التى تسير نظمها

الإجتماعية على إنزال هاتين الأُسرتين منزلة واحدة تقريبا فى درجة قرابتهما للفرد تطلق لغتها كلمة واحدة على كل من العم أو الخال oncle, uncle والعمـة والخالـة tante, aunt . وابن العم والعمة أو وابن الخال أو الخالة cousine وابنة العم أو العمة وأبنة الخال أو الخالة cousine .

على حين أن الأمم التى تفرق نظمها الاجتماعية بين هاتين الأُسرتين تختلف فى لغتها الكلمات الدالة على أفراد أُسرة الأب عن الكلمات الدالة على أفراد أسرة الأُم : العم ، الخال ، العمة : الخالة ، ابن العم ، ابن العمة ، ابن الخال ابن الخالة ، بنت العم ، بنت العمة ، بنت الخال ، بنت الخالة . . . . وإليك مثلا آخر مبلغ اتجاه الأُمة إلى مبادئ المساواة أو انحرافها نحو نظام الطبقات . فإن ما تسير عليه نظمها الإجتماعية بهذا الصدد يؤثر فى مختلف نواحى لغتها حتى فى ناحية القواعد . فبمخاطبة الفرد بضمير الجميع تعظيما له : (أرجو إن تتفضلوا . . .) وإجراء الخطاب فى صيغة الإخبار عن الغائب : (يتفضل سيدى . . .) ، كل ذلك وما إليه من أساليب التبجيل لا يبدو فى اللغة إلا حيث ينحرف الناس عن مبادئ المساواة وتكثر الفوارق بين الطبقات . ولذلك يعد تطور هذه الضمائر فى أُمة ما أصدق سجل لتطور اتجاهاتها فى هذه الشئون . فالصراع فى اللغة الفرنسية بين "tu" (أنت) و vous (أنتم) ، فى مخاطبة المفرد ، يمثل أصدق تمثيل مراحل الصراع بين روح المساواة ونظام الطبقات فى الشعب الفرنسى . فقد كانت الغلبة للضمير الأول فى العصور التى سادت فيها مبادئ المساواة ، وللضمير الثانى فى العصور التى وهنت فيها هذه المبادئ . ومثل هذا يقال فى اللغة العربية . فقد كان العرب فى جاهليتهم من أكثر الشعوب ميلا إلى المساواة بين الأفراد ، ولذلك ساد فى خطابهم ضمير المفرد ، ولم تبد فى لغتهم مظاهر المبالغة فى التبجيل . وقد سار القرآن على هذه الطريقة حتى فى توجيه الخطاب إلى الله

عز وجل . ولكنهم لم يلبثوا بعد اتساع ملكهم ، واحتكاكهم بالأُمم الأُخرى وانغماسهم فى الترف ، ومحاكاتهم لأبهة الفرس وأساليبهم فى الحياة ، واتجاه خاصتهم وأغنيائهم إلى الترفع عن الدهماء وطبقات المستضعفين ، لم يلبثوا بعد هذا أن انحرفوا عن مبادئهم الأُولى ، فانحرفت معهم أساليب لغتهم ، وساد فيها خطاب المفرد بضمير الجمع وإجراء الخطاب فى صيغة الإخبار عن الغائب ، ونفذت إليها الفاب « الحضرة » و « الجناب » وما إلى ذلك .

٥ ـ وكثيرا ما ينجم عن اختلاف الناس فى طبقاتهم وفئاتهم اختلاف مدلول الكلمات وخروجها من معانيها الأُولى . ويؤدى إلى ذلك ما يوجد بين الجماعات الناطقة باللغة الواحدة من فروق فى الخواص النفسية ، وفى شئون السياسية ، والاجتماع ، والثقافة ، والتربية ، ومناحى التفكير والوجدان ومستوى المعيشة ، وحياة الأُسرة ؛ والتقاليد والعادات . . . . وما تزاوله كل طبقة من أعمال ، وتضطلع به من وظائف ، والآثار العميقة التى تتركها كل وظيفة ومهنة فى عقلية المشتغلين بها ، وحاجة أفراد كل طبقة إلى دقة التعبير وسرعته وإنشاء مصطلحات خاصة بصدد الأُمور التى يكثر ورودها فى حياتهم وتستأثر بقسط كبير من انتباههم ، وما يلجئون إليه من استخدام مفردات فى غيرما وضعت له أو قصرها على بعض مدلولاتها للتعبير عن أمور تتصل بصناعاتهم وأعمالهم . . . .

وهلم جرا . فمن الواضح أن هذه الأُمور وما ألْيها من شأنها أن تخرج بالكلمات عن مدلولاتها الأُولى ، وتوجه معانيها فى كل طبقة وفى كل جماعة وجهة تختلف عن وجهتها عند غيرها .

٦ ـ وتتشكل اللغة كذلك بالشكل الذى يتفق مع اتجاهات الأُمة العامة وتغلب الناحية المادية أو الأدبية على شئون حياتها . فاتجاه الانجليز مثلا إلى الناحية العملية قد صبغ لغتهم بصبغة مادية فى مفرداتها وتراكيبها حتى إنه ليقال فيها : « دفع ـ زيارة أو تحية أو شكرا او انتباها ، .

وكيف أستطيع أن ادفع لك مقابل أياديك على ، وانفق وقتــه فى كيت وكيت « و « تربح الساعة أو تخسر .

" To pay visit, compliments, attention ". How can I pay you for all your goods " He spent his time in. The watch gains or loses.

بدلا من « أدى زيارة « و » وقدم تحية أو شكرا « و « أبدى انتباها » ولا أستطيع أن أرد لك مقابل أيا ديك على ، و « قضى وقته فى عمل ما » و « الساعة تقدم أو تؤخر » .

٧ــ وما يكون عليه الأفراد من حشمة وأدب فى شئونهم ومعاملاتهم وعلاقاتهم بعضهم ببعض ينبعث كذلك صداه فى لغتهم ألفاظها وتراكيبها . فاللغة اللاتينية لا تستحيى أن تعبر عن العورات والأمــور المستهجنة والأعمال الواجب سترها بعبا ارات مكشوفة ، ولا أن تسميها بأسمائها الصريحة ، على حين أن اللغة العربية بعد الإسلام تتلمس أحسن الحيل وأدناها إلى الحشمة والأدب فى التعبير عن هذه الشئون ، فتلجأ إلى المجاز فى اللفظ ، وتستبدل الكنايــة بصريح القول : القبل ، الدبر : قارب النساء . لمس امرأته ، قضى حاجته . . . الخ ولقد كان لها بهذا الصدد فى ألفاظ القرآن الكريم وعباراته أسوة حسنة : « نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنّى شئتم " « وقد افضى بعضكم إلى بعض » . « أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم » ، ــ « فاعتزلوا النساء فى المحيض » و « والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لـ ا قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا » . . . .

وما إلى ذلك من كريم العبارات ونبيل الألفاظ . وما يبدو فى اللغة العربية بهذا الصدد يبدو مثله فى اللغات الأوربية الحديثة وخاصة الشمالية منها . وأكثرها تحرجا فى هذه الناحية اللغة الانجليزية . فالبطن مثلا لا يعبر عنه فى لغة التخاطب الانجليزية باسمه الصريح بل يطلق عليه فى الغالب ؛ the Stomarch (أى المعدة) ، وسراويل الرجل تطلق عليها أحيانا كلمة معناها الأصــلى » مالا يمكن التعبير عنه : Inexpressible وسراويل المرأة يطلق عليها كلمة معناها

الأَصلى « الجمع أو التركيب combinaton وهلم جرا .

٨٠ـ ويتطور مدلول الكلمة فى لغة ما تبعا لتطور الشئون الاجتماعية المحيطة بهذا المدلول . فكل تطور من هذا القبيل يتجه بمدلول الكلمة وجهة خاصة ، وينحرف به قليـلا أو كثيرا عن أوضاعه الأُولى . والأَمثلة على ذلك تجل عن الحصر فى اللغة العربية وفى غيرها من اللغات . فكلمة « القطار مثلا كانت تطلق فى الأَصل على عدد من الإبل على نسق واحد تستخدم فى السفر وفى النقل ، ولكن تغير الآن مدلولها الأَصلى تبعاً لتطور وسائل المواصلات ، فأَصبحت تطلق على مجموعة عربات تقطرها قاطرة بخارية . وكلمة « البريد » كانت تطلق على الدابة التى تحمل عليها الرسائل ، ثم تغـير الآن مدلولها تبعا لتطـور الطرق المستخدمة فى ايصال الرسائل ، فاصبحت تطلق على النظم والوسائل المتخذة لهذه الغاية فى العصر الحاضر ، وكلمـة الريشـة plume كانت تطلق على آلة الكتابة أيام كانت تتخذ من ريش الطيور ، ولكن تغير الآن مدلولها الأَصلى تبعاً لتغير المادة المتخذة منها آلة الكتابة ، فاصبحت تطلق على قطعة من الحديد مشكلة فى صورة خاصة . وعبارة بنى الرجل على امرأته كانت تستخدم كناية عن دخوله بها ؛ لأَن الشاب البدوى كان إذا تزوج يبنى له ولأَهله خباءً جديدا ولكنها فقدت الآن معناها الأَصلى لانقراض هذا النظام ، وإن كانت لا تزال تستخدم كناية عن الزفاف . وقد جرت العادة فى بعض العصور بفرنسا أن يقضى المحكوم عليهم بالأَشغال الشاقة مدة عقوبتهم فى أعمال التجديف على ظهر السفن الملكية ، ومن ثم جاءت عبارة envoyer aus gulères

وجاء وصف galérien ولكن تغير الآن مدلولها تبعا لتغير النظم المتصلة بهذه العقوبة ونوعها .

وكثرة استخدام الكلمة فى مدلول ما ، لحدوث ما يدعو إلى ذلك فى شئون الحياة الاجتماعية وما يتصل بها ، يجردها ـ مع

تقادم العهد – من مدلولها الأَصلى ويقصرها على الناحية التى كثر فيها استخدامها . فكثرة استخدام العام مثلاً فى بعض ما يدل عليه ، لسبب اجتماعى ما ، يزيل مع تقادم العهد عموم معناه ، ويقصر مدلوله على الحالات التى شاع فيها استعماله . ولدينا فى اللغة العربية وحدها آلاف من أَمثلة هذا النوع . فمن ذلك جميع المفردات التى كانت عامة المدلول ثم شاع استعمالها فى الإسلام فى معان خاصة تتعلق بالعقائد أَو الشعائر أَو النظم الدينية : كالصلاة والحج والصوم والمؤمن والكافر والمنافق والركوع والسجود ... وهلم جرا . فالصلاة مثلاً معناها فى الأَصل الدعاء ثم شاع استعمالها فى الإسلام فى العبادة المعروفة لاشتمالها على مظهر من مظاهر الدعاء ، حتى أصبحت لاتنصرف عند إطلاقها إلى غير هذا المعنى ، والحج معناه فى الاصل قصد الشىء والاتجاه إليه ، ثم شاع استعماله فى قصد البيت الحرام ، حتى أَصبح مدلوله الحقيقى مقصوراً على هذه الشعيرة ... وقس على ذلك جميع أَفراد هذه الصائفة . ومن ذلك أَيضًا كلمة « الرث » ، فقد كانت تطلق على الخسيس من كل شىء ، ثم قصر مدلولها على الخسيس مما يفرش أَو يلبس لكثرة استخدامها فى هاتين الطائفتين ، وكلمة « المُدَام » فهى فى الأصل كل ما سكن ودام ، ثم شاع استعمالها فى الخمر لدوامها فى الدن أَو لأَنه يغلى عليها حتى تسكن ، فأَصبحت لا تتصرف إلى غير هذا المعنى .

وكثرة استخدام الخاص فى معان عامة عن طريق التوسع لسبب اجتماعى ما تزيل مع تقادم العهد خصوص معناه وتكسبه العموم . فمن ذلك مثلا فى اللغة العربية كلمات : البأْس والورد والرائد والنجعة.. وهلم جرا . فالبأس فى الأَصل الحرب ، ثم كثر استخدامه فى كل شدة فاكتسب من هذا الاستخدام عموم معناه ؛ وأَصل الورد إتيان الماء وحده ، ثم صار اتيان كل شىء وردًا لكثيرة استخدامه فى هذَا المعنى العام ؛ والرائد فى الأَصل طالب الكلأَ ثم صار طالب كل حاجة رائدا ؛ والنجعة فى الأَصل طلب الغيث ، ثم عممت فى الاستخدام فأَصبح كل طلب انتجاعاً . ومن ذلك فى اللغة الفرنسية كلمة salaire فقد كان معناها فى الأَصل – كما تدل على ذلك بنيتها

ما يصرف للجندى من نقود فى نظير مايحتاج إليه من ملح الطعام ، ثم شاع استعمالها فى كل أجرة حتى نسى معناها الأصلى ؛ وكلمـــة arriver : فقد كانت تدل فى الأصل ـ كما تشير إلى ذلك بنيتها ـ عَلَى الوصول إلى الشَّاطِئ ، ثم شاع استعمالها فى كل وصول ، فاستقر معناها على هذا الوضع العام .

وكثرة استخدام الكلمة فى معنى مجازى لسبب اجتماعى يؤدى غالباً إلى انقراض معناها الحقيقى وحلول هذا المعنى المجازى محله . فمن ذلك مثلًا فى اللغة العربية كلمات المجد والأَفَن والوغى والغفران والعقيقة ... وهلم جرا . فالمجد معناه فى الأَصل امتلاءُ بطن الدابة من العلف ، ثم كثر استخدامه مجازًا فى الامتلاء بالكرم حتى انقرض معناه الأَصلى وأصبح حقيقة فى هذا المعنى المجازى . ولهذا السبب نفسه انتقل معنى « الأَفَنَ » من قلة لبن الناقة إلى نقص العقل ؛ وانتقل معنى « الوغى » من اختلاط الأَصوات فى الحرب إلى الحرب نفسها ؛ ومعنى « الغفر » و « الغفران » من الستر إلى الصفح عن الذنوب ؛ ومعنى « العقيقة » من الشعر الذى يخرج على الولد من بطن أُمه إلى ما يذبح عنه حلق ذلك الشعر .

واستخدام الكلمة فى فن ما بمعنى خاص يجردها فى هذا الفن من معناها اللغوى ويقصرها على مدلولها الإصطلاحى . ويدخل فى هذا مصطلحات الآداب والفلسفة والقانون والاجتماع والعلوم والفنون .... وما إلى ذلك . ومن ثم نرى أن الكلمة الواحدة تستعمل فى الشعر بمعنى ، وفى الرسائل بمعنى آخر ، وفى السياسة بمعنى ثالث ، وفى الفنون الحربية بمعنى رابع ، وفى القانون بمعنى خامس ، وفى الطبيعة بمعنى سادس ، وفى الطب بمعنى سابع .... وهلم جرا .

٩ ـ وإلى مقتضيات الحياة الاجتماعية وشئونها ترجع كذلك أهم الأسباب فى نشأة كلمات لم تكن موجودة فى اللغة من قبل وفى هجر كلمات كانت مستخدمة فيها أو انقراضها انقراضاً تاماً . فأهم العوامل التى تدعو إلى نشأة كلمات فى اللغة ترجع إلى مقتضيات الحاجة إلى تسمية مستحدث اجتماعى جديد : نظام حديث

فى الشئون الاجتماعية أو الاقتصادية أو غيرها نظرية جديدة علمية أو فلسفية مخترع مادى جديد ... وهلم جرا . وأهم العوامل التى تؤدى إلى إنقراض كلمة من الاستعمال ترجع إلى انقراض مدلولها نفسه من نطاق الحياة الاجتماعية ، أوإلى عدم استخدامه . ويصدق هذا على الملابس والأثاث وعدد الحرب ووسائل النقل وآلات الصناعة والمقاييس والنقود ومظاهر النشاط والنظم الاجتماعية التى انقرضت أو بطل استخدامها فانقرضت معها المفردات الدالة عليها . فقد انقرض فى العربية كثير من الكلمات الدالة على نظم جاهلية قضى عليها الإسلام ، كالمِرْباع والصَّرُورة والنَّوَافِج . وانقرض فى الفرنسية لهذا العامل ومايتصل به كلمات كثيرة منها :

Veste, casaquin, cabat, carosse, oupentes, briquel, pacotille, corvette frégate, brulot. boulet, arpent, lcaliard, toise...etc.

١٠ ــ وللشئون الاجتماعية أثر كبير كذلك فى صراع اللغات الناشئ عن نزوح عنصر أجنبى إلى البلد يتكلم بلغة غير أهلة ، على أثر هجرة أو فتح أواستعمار ، وفيما ينتهى إليه هذا الصراع من تغلب إحدى اللغتين المتصارعتين على الأخرى أو بقائهما معاً جنباً إلى جنب مع تبادل التأثر والتأثير ..

فإذا لم يكن لكلا الشعبين اللَّذِينَ تتصارع لغتاهما حضارة يعتد بها ، ويزيد عدد أفراد أحدهما عن عدد أفراد الآخر زيادة كبيرة فنى هذه الحالة تتغلب لغة أكثرهما عددًا . سواءٌ كانت لغة الأصيل أو الدخيل ، لغة الغالب حربياً أم المغلوب . وذلك أنه عند انعدام النوع ، وهو ما تمثله الحضارة ، يتحكم الكم فى مصير الامور . والامثلة على ذلك كثيرة فى التاريخ . فمن ذلك أن النورمانديين حينما أغاروا على إنجلترا فى منتصف القرن التاسع الميلادى ، واحتلوا معظم مناطقها ، لم تلبث لغة الشعب المقهور أن تغلبت على لغتيهم ، فأصبح جميع السكان ، أصيلهم ودخيلهم إنجليزيهم ونورمانديهم يتكلمون الإنجليزية السكسونية . وذلك لأن الإنجليز المغلوبين كانوا يزيدون زيادة كبيرة فى عددهم عن النورمانديين الغالبين ، ولم يكن لأحدهما حضارة يعتد بها ، فتحكم لكم فيما انتهى إليه الصراع .

وإذا كان الشعب الغالب أرقى من الشعب المغلوب فى حضارته وثقافته ، وأشد منه بأساً وأوسع نفوذًا فإن النصر يكتب للغته وإن قل عدد أفراده عن أفراد الشعب المغلوب ؛ على شريطة أن تدوم غلبته وقوته مدة كافية ، وأن تقيم بصفة دائمة جالية يعتد بها من أفراده فى بلاد الشعب المغلوب ، وإن تمتزج هذه الجالية بأفراد هذا الشعب ، وأن تكون اللغتان من شعبه لغوية واحدة أو من شعبتين متقاربتين تجمعهما فصيلة واحدة .

والأمثلة عن ذلك كثيرة فى التاريخ ، فقد نجم عن فتوح الرومان فى وسط أوربا وشرقها أن تغلبت لغتهم اللاتينية على اللغات الأصلية لإيطاليا وفرنسا وأسبانيا والبرتغال ورومانيا ، مع أن الرومان المغيرين كانوا فى هذه البلاد أقلية بالنسبة إلى سكانها الأصليين ، وقد توافرت الشروط التى ذكرناها فى هذه الحالة . فقد دامت غلبة الرومان فى هذه البلاد مدة كافية ، وأقامت بصفة دائمة جالية يعتد بها من الرومان فى هذه البلاد وامتزجت بأفراد الشعوب المغلوبة ، وكانت اللغتان وهما اللاتينية للرومان والكلتية للشعوب المغلوبة من فصيلة لغوية واحدة ، وهى الفصيلة الهندية ـ الأوربية ، وكان الشعب الغالب ـ وهم الرومان ـ أرقى من الشعوب المغلوبة فى حضارته وثقافته وآداب لغته ، وأشد منه بأساً وأوسع نفوذًا . وقد نجم عن فتوح العرب المسلمين فى آسيا وأفريقيا أن تغلبت لغتهم على كثير من اللغات السامية الأخرى وعلى اللغة القبطية فى مصر والبربرية فى شمال أفريقيا . فأصبحت اللغة العربية لغة الحديث والكتابة فى معظم مناطق شبه الجزيرة العربية وفى مصر والسودان وشمال أفريقيا ، مع أن الجالية العربية فى هذه البلاد كان عددها أقل كثيراً من عدد السكان الأصليين ، وقد توافرت الشروط التى ذكرناها فى هذه الحالة . فاللغة العربية وهى لغة الشعب الغالب ، كانت أرقى كثيرا من لغات هذه الشعوب ، وقد دخلت هذه البلاد وبين يديها تراث لغوى مجيد على رأسه القرآن الكريم وأحاديث الرَّسُول عَلَيْهِ السَّلَام والأدب الجاهلى والإسلامى ، وكان الشعب العربى نفسه حينئذ أرقى كثيراً من هذه الشعوب فى حضارته وتراثه وأشد منها بأساً وأوسع نفوذًا ، وقد

دامت غلبته وقوته مدة كافية ، وأقامت بصفه دائمة جالية يعتد بها من أفراده فى بلاد الشعوب المغلوبة وامتزجت بأفراد هذه الشعوب ، وزاد امتزاجها بهم بعد أن دخلوا الإسلام ، وكانت اللغة العربية ولغات هذه الشعوب من فصيلة لغوية واحدة وهى الفصيلة السامية ـ الحامية .

وإذا لم يتوافر شرط من الشروط السابق ذكرها والتى يتوقف عليها تغلب إحدى اللغتين على الأُخرى فأنهما تعيشان معاً جنباً إلى جنب مع تبادل التأثر والتأثير .

والأمثلة على ذلك كثيرة فى تاريخ الأمم الغابرة وفى العصر الحاضر . فاللغة اللاتينية لم تقو على التغلب على اللغة الإغريقية ، مع أن الأُولى كانت لغة الشعب الغالب ، وكانت اللغتان من فصيلة واحدة ، وهى الفصيلة الهندية ـ الأُوربية . وذلك لأن الإغريق مع خضوعهم حربياً وسياسيا للرومان ، كانوا أعرق منهم حضارة وأوسع ثقافة وأرقى لغة وقد سبق أن انهزام لغة الشعب المغلوب أمام لغة الشعب الغالب لايحدث إلا إذا كان الشعب الثانى أرقى من الشعب الأول فى جميع هذه الامور . واللغة العربية لم تقو على الانتصار على اللغة الفارسية على الرغم من فتح العرب لبلاد فارس وبقائها تحت سلطانهم أمداً طويلاً . وذلك لأن حضارة الشعب الفارسى لم تكن حينئذ أقل من حضارة العرب إن لم تكن أرقى منها هذا إلى أن كلتا اللغتين تنتمى إلى فصيلة لغوية غير الفصيلة التى تنتمى إليها اللغة الأُخرى . فالعربية من الفصيلة الساميّة والفارسية من الفصيلة الهندية ـ الأُوربية .

وإذا هاجر شعب من منطقته إلى منطقة أُخرى وأنبتّ عن إخوته ، وأُحيط بشعوب تستخدم لغة أُخرى غير لغته ، فإن لغة هذه الشعوب لا تلبث أن تتغلب على لغته ولو كانت من فصيلة أُخرى غير فصيلته ومن أمثلة ذلك أهل بلغاريا ، فإنهم حينما نزحوا من شمال أوربا إلى البلقان بعدوا بعداً كبيراً عن اخوانهم الذين يتحدثون باللغات الفينية ، وأحيطوا من جميع جهاتهم بشعوب صقلبية ، وأُتيح لهم الامتزاج بهذه الشعوب امتزاجاً كبيراً ، فأخذت لغتهم تنهزم شيئاً فشيئاً أمام لغات هذه الشعوب حتى انقرضت وحل

محلها لسان صقلبى . وهكذا يكون الجزاء للمنبت عن أخوته حضاريًّا .

وإذا تقوقع مجتمع ما فى منطقته ، وضعف اتصاله الحضارى ببقية سكان البلد ، فإنه يظل محافظاً على لغته ولا يخضع لقوانين الصراع اللغوى . والأمثلة على ذلك كثيرة فى التاريخ :

فمن ذلك أنه يظهر أن بنى إسرائيل فى مصر قد ظلوا محافظين على لسانهم العبرى يتخاطبون به فيما بينهم فى أثناء مقامهم الطويل فى مصر الذى امتد إلى أكثر من أربعة قرون ، وأنه ظل لسانهم بعد أن خرجوا من مصر مع موسى عليه السلام ، وذلك مع الامهم باللغة المصرية وتفاهمهم بها مع بقية السكان ، مع أن القانون كان يقضى بتغلب اللسان المصرى على ألسنتهم . ويظهر أن السبب فى ذلك يرجع إلى العادة الإسرائيلية التى ظلت ملازمة لهم إلى الوقت الحاضر ، والتى تتمثل فى قوقعتهم فى شوارع وحارات فى المدن التى يسكنونها أو بها جرون إليها ، وحفاظهم فى هذه الشوارع والحارات على تقاليدهم ولغتهم .

ومن ذلك أيضاً أهل بلاد النوبة فى مصر ، فإن تقوقعهم فى مناطقهم كان له أثر كبير فى احتفاظهم بلغتهم وعدم تأثرهم باللغة العربية . التى تغلبت على ألسنة بقية سكان مصر ؛ هذا إلى اختلاف فصيلة لغتهم عن فصيلة اللغة العربية .

ومن ذلك أيضاً أن اللغة العربية لم تستطع التغلب على اللغات البربرية فى بعض المناطق فى شمال أفريقيا ، فلا يزال إلى الوقت الحاضر عدد غير يسير من سكان المغرب والجزائر وتونس يستخدمون فى تخاطبهم بعضهم مع بعض لهجاتهم البربرية القديمة وإن كانوا يستخدمون العامية العربية فى تخاطبهم مع أهل البلاد ، مع أن اللغة العربية قد تغلبت على معظم البلاد البربرية . ومع إنتماء اللغتين إلى فصيلة واحدة وهى الفصيلة السامية الحامية ، ولعل السبب فى ذلك يرجع إلى تقوقع السكان فى هذه المناطق وعدم امتزاجهم كثيراً ببقية السكان .

ومن ذلك أيضاً جماعة البزيتون فى الجنوب الغربى لفرنسا فى محافظة اللوار

الأَدنى على سواحل المحيط الأَطلسى . فإن تقوقعهم فى منطقتهم كان له أثر كبير فى احتفاظهم بلغتهم الكلتية ، وعدم تأثرهم باللغة اللاتينية ولا باللغة الفرنسية التى انشعبت عن اللاتينية ، وإن كانت لغتهم هذه قد أخذت فى الانقراض . فقد زرت هذه المقاطعة وقضيت فيها عدة أسابيع متنقلا فى بلادها فلم أسمع هذه اللهجة إلَّا عند طائفة من الشيوخ . وحتى هؤلاء أنفسهم لايتكلمون بلهجتهم هذه إلَّا فيما بينهم ، وأما مع غيرهم فيتكلمون الفرنسية ، ولكن ينال كلماتها وتراكيبها فى السنتهم كثير من التحريف ، كما تحرف العربية فى السنة النوبيين . وقد انقرضت هذه اللهجة انقراضاً تاماً من لغة الكتابة والأَدب . وانقرضت كذلك من لغة التخاطب بين أَبناء الجيل المعاصر .

على عبد الواحد وافى

عضو المجمع

من أهم مراجع البحث

(عنوان الكتاب)	(المؤلف)
اللغة والمجتمع	ا . د . على عبد الواحد واقى .
علم اللغة .	ا . د . على عبد الواحد وافى .
فقه اللغة .	ا . د . على عبد الواحد وافى .
الصاحبى فى فقه الله وسنن العرب .	
فى كلامها .	ابن فارس .
فقه اللغة .	الثعالبى .
شفاء العليل فيما ورد فى كلام العرب. من الدخيل .	شهاب الدين الخفاجى .
المزهر فى علوم اللغة وأنواعها .	السيوطى .

De la croix Le Langaze et la pensée

Dausat : philosphophie du langage

Dausat : le vie du langage

Ribot : L'Evolution des idees Générales

Mei llet : Comment les mots changent de Sens (dans "L'année Sociologique" tome IX.

Vanniet L'Esprit et les Moeurs d'une nation d'après sa langue (Revue pedagogique 1907, T.2. p.p. 434-463).